التأثير الاجتماعي لجائحة الكورونا

"الطوفان الجديد"

د. ماجد عزمى

منذ أيامٍ، استضاف برنامجٌ تلفزيوني شهير أحدَ الخبراء ليتحدث عن الآثار المترتبة على جائحة كورونا، فبدأ الضيف حديثه بالتشبيه التالي:

"في عام 2008 تعرض العالمُ لأزمةٍ مالية ضخمة سبَّبت نتائجَ سيئةً لكل البلدان، وكانت الأزمة المالية شبيهة بتعرُّض إنسانٍ لأزمة قلبية، جلطة سدت الشرايين، فتوقف الدم عن التدفق، ولزم الكثير من العلاج لإذابة الجلطة، وإرسال مزيد من الدم (المال) للأماكن المتضررة. ولكن بشيء من التعاون تجاوز العالم هذه الأزمة، أما الأزمة الحالية، المتعلقة بتأثير جائحة كورونا على العالم، فهي ليست كسابقتها، انسداد، وتعطل لسريان الدم بعدها تعود الأمور لسابق عهدها، لكن الأزمة الحالية تشبه سيارةً ضخمةً صَدَمت هذا الإنسان المسكين الذي تعرض للجلطة في 2008، السيارة هشمت عظامه، وأحدثت جروحًا في أماكن متعددة، وسال دمه على قارعة الطريق وفقد الوعي، لذلك يلزم الكثير من التدخل بصورة تفوق التوقعات لعلاج هذا الحادث الذي سيستمر أثره لسنين طويلة".

أعجبني هذا التشبيه لأنه يصف بدقة تشعب الآثار المترتبة على أزمة جائحة الكورونا؛ فالأزمة بدأت في القطاع الصحي، لكنها انتشرت لتطال بقية القطاعات: القطاع الاقتصادي والمجتمعي والديني والأخلاقي والثقافي.

اكتسح طوفان الوباء الهادر كل أودية العالم، مغيّرًا شكل العالم الذي اعتدناه لسنين طويلة. ولفترة طويلة قادمة ستظل سفينة البشرية طافيةً بغير هدى فوق تيارات ولجج الوباء باحثةً لها عن مُستَقَرٍّ ترسو عليه، لتعيد البشريةُ من بعده صياغةَ الحياة فوق الأرض بمعادلاتٍ أخرى تختلف -جملةً وتفصيلًا- عن تلك التي سبقت الوباء. هذا الوباء الذي يشبه الطوفان في أن معظم الآثار المدمرة التي حدثت منه ما كانت لتحدث لو استجاب

البشر لتحذيرات واضحة أهملوها، مثلما أهملوا في القديم تحذيرات الطوفان وإن كان الاختلاف هنا هو أن مصدر الطوفان هو الإنسان بسلوكياته الخاطئة عبر السنين.

في السطور التالية سنتناول بالبحث خمس مساحات طالتها مياه طوفان الكورونا بقسوة، فغيَّرت شكلها القديم، وحتى كتابة هذه السطور لا تزال المياه تغمر الكثير منها بصورة تجعل رؤية الوضع النهائي غير متاحة حتى الآن.

1. مساحة الأولويات

كان البشر قبل الجائحة يسيرون بأجندات متخمة بالمواعيد، اجتماعات، لقاءات، سفر، مؤتمرات، حتى العطلات والإجازات كانت تتم بالحجز باليوم والساعة. كان تغيير أحد المواعيد يُعَدُّ من الأمور المستحيلة، الجميع يعملون بدون توقف، والأسرة تدفع الثمن؛ وقت قليل غير كافٍ يقضيه الجميعُ مع أسرهم. الجميع مارسوا التباعد الاجتماعي قبل أن يفرضه الوباء؛ فالتباعد الاجتماعي لا يعني أن أترك مترًا ونصف المتر بيني وبين من يليني في صف السوبر ماركت، وإنما يعني أن أترك أبنائي دون أن أتحدث معهم يوميًّا عن أحلامهم وآمالهم، أن أهمل أهلي الذين باتوا في أمس الاحتياج إليَّ بعد أن طعنوا في السن، التباعد الاجتماعي هو ألا أتواصل مع القريبين مني الذين يشكِّلون الأولوية في حياتي، وأقضي حياتي متواصلًا مع آخرين لا يتذكرون اسمي بعد أن أغيب عن أعينهم. حظر التجوال وحظر السفر وتوقف العمل أثبت للجميع أننا كنا نحيا في وهمٍ صنعناه بأنفسنا عن مشغولية كاذبة وأمور كنا نظن أنها إذا توقفت سيتوقف العالم عن الدوران، ولكنها توقفت واستمرَّ العالم في الدوران، واكتشفنا كم كان مفهوم الأسرة مشوَّشًا في الأذهان، وكم كانت الأولويات معكوسةً في حياتنا، جاءتنا الفرصة لنقضي وقتًا مع الأشخاص الجديرين بذلك، واكتشفنا صدق مقولة "زيج زيجلر": "إن كلمة "حب" يتم كتابتها هكذا "و ق ت" وقت". أن أفضل أسلوب للتعبير عن محبتي لأطفالي أن

أقضي وقتًا معهم لا أن أسافر إلى آخر الكرة الأرضية لأحضر لهم لعبة غالية يلعبون بها في الليالي الباردة التي يقضونها بمفردهم في وحدة مفتقدين فيها دفء حضن الأهل.

إن إعادة ترتيب الأولويات ستكون من أولويات البشرية في إعادة تقييم حياتهم التي ستشهد اختلافًا جذريًّا في الوقت القادم، بالذات بعد أثبتت الجائحة أن الكثير من الأمور التي كنا نغادر المنزل لأجلها يمكن أن تُنجَز من المنزل، وأن كل من كنا نتركهم لمقابلة آخرين هم الأجدر بالوقت والمحبة والتكريس.

2. مساحة الماديَّة المفرطة والاستهلاك

قبل الجائحة كان العالم يعيش في إطار من الاستهلاك الشديد لكلِّ ما هو مادي، سلع كثيرة يتم خلق احتياج لها في نفوس البشر، ثم يتم دفع البشر لشراء السلع التي تبلى أو تتغير موضتها، لتظل المصانع تعمل على مدار الساعة لتشبع هذا النهم الشديد للاستهلاك المادي.

إن كلمة استهلاك تأتي في الأصل اللغوي من المصدر "هلك" (هـ ل ك)، هذا النمط من الحياة لا يؤدي فقط الى هلاك الإنسان، وإنما هلاك البيئة، وهلاك موارد الأرض. لقد كشفت الجائحة عن نمطٍ غير متوازن كان سيؤدي -إذا استمر بنفس الوتيرة الشرهة للاستهلاك- إلى هلاك الإنسان والطبيعة وموارد وخيرات الأرض.

بعد أيام من الحظر وتوقف المصانع، بدأت سماوات المدن الكبيرة في التخلص من التلوث العالق بها؛ فظهرت السماء صافيةً، وأصبحت جداول المياه أكثر نقاءً، وتنفس البشر هواءً نقيًّا في مدن كان مستوى التلوث فيها وصل إلى نسب قياسية، لم تكن المشكلة الوحيدة التي تكشفت في المادية والاستهلاك هي حجم التلوث، لكن أيضًا في ماذا يصنع البشر في المصانع على مدار السنين؟ وكانت الإجابة المذهلة هي أن ما يصنعه البشر من السلاح وأدوات التدمير والموت يفوق ما يصنعونه من أجهزة أو منتجات تساعد على البقاء على قيد الحياة، وكأن كلمة الاستهلاك هي بالفعل الباب الرحب للهلاك وليس للحياة. سيتعين في المستقبل أن يجلس الساسةُ والقادة ليعيدوا توزيع الميزانيات، وتحويل مسارها من الذهاب إلى مصانع الصواريخ والدبابات لتذهب

الى مصانع الأدوية واللقاحات، وسيتعين على البشر إيقاف هذا النمط الاستهلاكي المتنامي ليجعل الحياة أكثر جودة بمنتجات كلما قل عددها زادت السعادة في القلوب وليس العكس.

3. مساحة أودية المعرفة واليقين

يسير تاريخ البشرية كله في دوائر تعود بالإنسان دائمًا الى نفس النقطة، المعرفة، تلك النقطة التي شهدت غواية الحية لحواء وآدم والدعوة لهما أن يصيرا كالله عارفين الخير والشر. كانت شهوة المعرفة المحرّكَ الأول الذي أسقط الإنسان الأول، ولا يزال حتى الآن هو المحرك الأعظم لخطوات الإنسان ونشاطه اليومي، حتى وإن اختلفت الملابسات، فآدم وحواء طلبا المعرفة بدافع الكبرياء وربما الاستقلال. أما إنسان اليوم فهو يطلب المعرفة بحثًا عن السلام واليقين، فالجهل وعدم المعرفة دائمًا ما يثيران الخوف والرعب في داخل كل إنسان. ربما لهذا السبب رسمت شركة آبل شعارها تفاحة مقضومة للتذكرة بالحلم القديم وللوعد بأنها ستمنح المعرفة لمستهلكي منتجاتها، وللسبب نفسه تحرص وكالات الأنباء على التنافس لنقل المعلومة وقت حدوثها ويتندر البعض بنقل المعلومة قبل حدوثها.

المعلومات تعطي معرفة، والمعرفة تمنح سلامًا للقلوب الحائرة التي لا تعلم من أمر الغد شيئًا. مع الثورة المعرفية والتكنولوجية أصبح تبادل المعلومات أسهل في العصر الحديث، وصارت المعرفة قريبة جدًّا من كل إنسان، حتى صارت مشكلة العقود الأخيرة هي تزاحم المعلومات وتخمة المعارف، وانتقل البشر من مرحلة البحث عن المعرفة والمعلومات إلى مرحلة ماذا نفعل بكل هذه المعلومات المتاحة لدينا. ومثلما شهدت الثورة الصناعية انقلابًا في الإنتاج والاستهلاك وصار الإنسان ينتج أكثر مما يحتاج ويصارع لأجل استهلاك كل ما أنتجه، بالمثل بعد ثورة المعلومات أصبح الإنسان يعرف أكثر مما يستطيع أن يستوعب ويفهم، وصار يصارع للتعامل مع كل هذه المعلومات المتاحة.

حتى أتي طوفان الوباء ومعه أمواج كاسحة من عدم اليقين، الإجابات المسيطرة على كل المسؤولين هي: "لا نعلم، لا نعلم..." طوفان من الأسئلة الحائرة بلا إجابات غمرَ قلوبَ البشرية: من أين جاء الوباء؟ كم سيستمر؟ كيف نتعامل معه؟ متى ينتهي؟

وإلى الآن لا يزال طوفان الأسئلة يملأ العقول. سادت حالة من الهستيريا في مواقع التواصل الاجتماعي، إجابات مفتعلة وتخمينات مبنية على خبرات سابقة لا تتشابه مع الموقف الحالي، واقتراحات لحلول وتناقل إحصائيات عن موعد النهاية. الجميع يفكر بالأمنيات WISHFULL THINKING؛ أي يطرح ما يتمنى أن يكون كأنه حقائق مؤكدة وذلك في محاولة لاستعادة السلام المفقود.

لقد حطم الوباء وهم المعرفة لدى كل إنسان ونزع اليقين من القلوب، ومع اليقين المفقود تسلل السلام والهدوء ليحل الخوف من المجهول، الجائحة لمست النفوس مع الأجساد، وإذا كان تعداد من أصابهم الفيروس في العالم يقترب حتى كتابة هذه السطور من 17 مليونًا، فإن من أصابه الخوف المرضي من الوباء يقترب من عشرة أضعاف هذا الرقم، أدوية الاكتئاب والقلق زادت مبيعاتها لأرقام فلكية، الوجوه المثبتة على شاشات الهواتف بحثًا عن معلومة تمنح سلامًا لا تجد إلا إحصائيات مبهمة وأخبارًا متضاربةً.

وسط مياه الحيرة المثلجة، يقف العالم الآن يرتعش من القلق والخوف، يراقب تراجع التأثير الجسدي للجائحة، لكنه لا يجد تراجعًا في التأثير النفسي؛ فكل الدلائل تشير إلى معاناة الكثيرين حول العالم في المستقبل من اضطراب ما بعد الصدمة .P.T.S.D، ذلك الاضطراب الذي يعلن أنه حتى وإن جفت مياه الطوفان من على أجساد البشر ستظل قلوبهم الباردة ترتعش وهي تبكي يقينها المكسور الذي حطمته الجائحة ودفنته تحت أكوام من أسئلة حائرة بلا إجابات شافية.

4. مساحة أودية الدين

الدين هو المعتقد الذي ينظم علاقة الإنسان بالله، وفي العصور الأولى للبشرية عبد البشر آلهة متعددة، وكانت عبادتهم للآلهة تستمر ما دامت حياتهم بخير وسلام، ولكن حين تحل الكارثة يصرخ البشر للآلهة التي لم تكن تستجيب بالطبع، فيتحول الإنسان عنها ويغير الإله ويقول لنفسه: "لا بأس لقد كنت أعبد الإله الخطأ". حتى جاءت الأديان ومعها إعلان عن الإله الواحد، خالق الكون، العظيم القادر على كل شيء، واستراح البشر لاكتشاف الله وعبدوه من خلال الأديان المختلفة، حتى جاءت الجائحة لتضرب سلام البشر الداخلي وإحساسهم بالحماية من قِبَل الله. لقد كانت البلاد المتضررة بصورة كبيرة من الوباء في البدايات هي بلاد لها طابع استضافة أحداث دينية؛ إيطاليا مثلًا ولقاءات ساحة القديس بطرس في الفاتيكان، إيران واحتفالات الشيعة، كوريا الجنوبية وامتناع بعض الكناس عن الإغلاق، الأمر الذي اعتذر عنه راعي الكنيسة لاحقًا. كل هذه الأماكن كان الناس فيها يزدحمون في شعائرهم الدينية وهم يعتقدون أنهم -بحسب إيمانهم- محاطون بحماية تامة من الله، حتى في عيد القيامة ورمضان وعيد الفطر لاقت تعليمات إغلاق الكنائس والمساجد رفضًا عنيفًا، وحاول البعض تجاوز التعليمات وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن الله يحمي المخلصين من أتباعه وبالطبع كان يفعل ذلك بكل إخلاص.

منذ ثلاثة عقود تقريبًا، بالتحديد منذ ظهور علم النفس والمشورة والعلاج النفسي بقوة على سطح المجتمعات الإنسانية كطريقة لتقديم الراحة للبشر المتألمين والمحتاجين للمشورة، أو المحتاجين لعلاج بعض الأمراض النفسية، منذ ذلك الحين، دخل الدين منافسًا للعلوم الإنسانية والطبية في تقديم الراحة على الأرض من المشاكل المختلفة، وبدأ البعض ليس فقط في تقديم الدين كمصدر للراحة -وهو بالفعل مصدر للراحة والسلام إذا استطاع أن يصل بالإنسان إلى الله في مصالحة واعية- ولكن بعض رجال الدين هاجموا أيضًا علم النفس والمشورة والطب النفسي ليجعلوا من الدين السبيل الوحيد للراحة. وكان لزامًا على مقدمي هذا الفكر أن يضعوا شروطًا

للوصول إلى الراحة فقالوا للبشر بأنك إذا كنت شخصًا مطيعًا للوصايا، محبًّا لله، ستنال البركة والصحة، وإذا كنت متعديًا وشريرًا، أو في حياتك خطية، ستنال العقاب والضعف والمرض. واستمر هذا النمط من التعليم حتى أتت الجائحة، ورأينا أشخاصًا أتقياءَ صالحين يمرضون، ورأينا أشخاصًا نعلم عنهم عدم التقوى لا يمرضون، وهنا ثار السؤال الشبيه بما سأله رجل الله في القديم: "أخبرني يا سيدي إن كان الله معنا فلماذا أصابتنا الكورونا؟!"

ومع تكرار السؤال اختلفت الإجابات غير المتيقنة، لذلك سيكون لزاما على المجتمعات أن تجتمع لتناقش أركان إيمانها بالله، وهل هي حقًّا تؤمن بالله، أم تؤمن بالدين والطائفة (والفارق كبير)؟ هل الدين هو للراحة أم للإصلاح؟ هل تفسيراتنا للدين تخرج من قناعاتنا وأهوائنا التي نضيف إليها بعض الآيات المقطوعة من سياقها لنروج لراحة وهمية للأتباع على الأرض؟ وان كنا موعودين بالراحة على الأرض فلماذا نتطلع للسماء؟ أو لعلنا -بالحقيقة- لا نتطلع للسماء!

5. مساحة العولمة الجديدة

حين ظهر لفظ العولمة كان يعني عولمةً اقتصاديةً، وجَعْل الشركات الكبيرة عابرةً للحدود، مما يتيح توزيعًا أكبر للمنتجات واستهلاكًا أكثر، وعولمة ثقافية تسمح بانفتاح الشعوب على الثقافات المختلفة وتبنِّي ما تريده منها، مما يغير عادات الشعوب ونمط الحياة بها. لكن كذلك صار هناك عولمة صحية وبائية؛ فالمرض يمكن أن يبدأ في الصين ثم يسافر إلى كل العالم ليصبح وباءً عالميًّا، وصار تعبير "العالم قرية صغيرة" تعبيرًا شديد الواقعية. ومع انتشار المرض في جميع البلدان، انتشرت الأزمة الاقتصادية بنفس القوة والعنف، الملايين تركوا وظائفهم، أو انخفض دخلهم وتآكلت مدخراتهم، الأمر الذي دعا الدول المختلفة إلى التفكير في اتجاه مغاير للعولمة ومعاكس للتعاون -بعكس أزمة 2008- فبدلًا من أن تتكاتف الدول لتخفيف آثار الجائحة على العالم، أغلقت كل دولة حدودها عليها بالمعنى الحرفي والمجازي، فصارت الدول تفكر في حلول مختلفة

للأزمة، كل دولة تفكر في لقاح خاص بها، بعض الدول كالولايات المتحدة احتكرت دواءً بعينه شرعت في تخزينه ليكون خاصًّا بمرضاها، وقبلها حولت دول مسارات سفن كانت تحمل كمامات لدول أخرى لتستولي هي عليها في مشهد من الأنانية الدولية لم يسبق له مثيل.

ومثلما فعلت الدول فعل الأفراد داخل الدول، فاهتم التجار برفع أسعار السلع التي تشهد إقبالًا، وأخفوا سلعًا أخرى ليرتفع سعرها، وعلى غرار أنانية الدول والتجار أدلت الشعوب بدلوها في بئر الأنانية ومارس المشترون كل مظاهر العنف الأناني في الهجوم على الحوانيت لاقتناص السلع بكميات كبيرة للتخزين ولم يسلم من هذا الهجوم الأناني حتى ورق التواليت، الذي صار شاهدًا على حقبة قادمة سيحيا فيها الكل بمنطق "أنا بعدي الطوفان". وعندما نتحدث عن الكل فإننا نقصد شعوبًا وبلدانًا، سياسات جماعية وفردية، سيشهد العالم في المستقبل القريب أزمة من الأنانية الشديدة التي يغذيها الخوف، وستسود المجتمعات الصغيرة والكبيرة توترات الحفاظ على الحياة، حتى ولو على حساب حياة الآخرين. لقد بدأ التعاون الدولي يتلاشى ليحل محله سياسة براجماتية نشهد في مقدمة مظاهرها انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من منظمة الصحة العالمية، وسينسحب هذا التيار الأناني ليشمل الأفراد والعلاقات، وسينتج عن هذا تضاعف للفقر والعنف، ليس بسبب ما فعلته الجائحة في العالم وإنما بسبب ما فعلته البشرية والحكومات بنفسها أثناء معالجة أزمة الجائحة.

إن إعادة ترتيب الأولويات ومفهوم أهمية العلاقات، جنبًا إلى جنب مع إعادة التفكير في نمط الاستهلاك والإهلاك المادي، وتغيُّر لغة الإيمان ومعطياته، مع التوجُّه الأناني للأفراد والمجتمعات سيشكلون الأساس الأكبر للتغيُّرات المجتمعية التي سيشهدها العالم في الوقت القادم.

ربما سيكون كل هذا محاطًا بثورة في استخدام الإنترنت والتطبيقات أون لاين، لكن دائمًا ستخضع التعاملات الإنسانية لهذه المحددات الأربعة، التي ستغير كثيرًا في سلوك البشر وتوجهاتهم.

وأخيرًا كما أسلفت في البداية لا تزال سفينة البشرية تترنح بغير هدى فوق تيارات ولجج الجائحة، والبشر بداخلها منقسمون على أنفسهم، يحلمون باليابسة لكن لا يفعلون ما يذهب بهم الي هناك، ولكنهم في كل صباح يفتحون طاقة وسائل التواصل الاجتماعي لعلهم يجدون الخبر المُنتَظَر، خبر عودة الحمامة حاملةً غصن الزيتون الذي يعلن ظهور اليابسة وانتهاء الطوفان، لكن السفينة لا تزال تائهة، والحمامة لا تزال تطير تحت الشمس الحارقة دون أن تجد مُستقَرًّا لقدميها المتعبتين أو دفئًا لقلبها المرتعش.